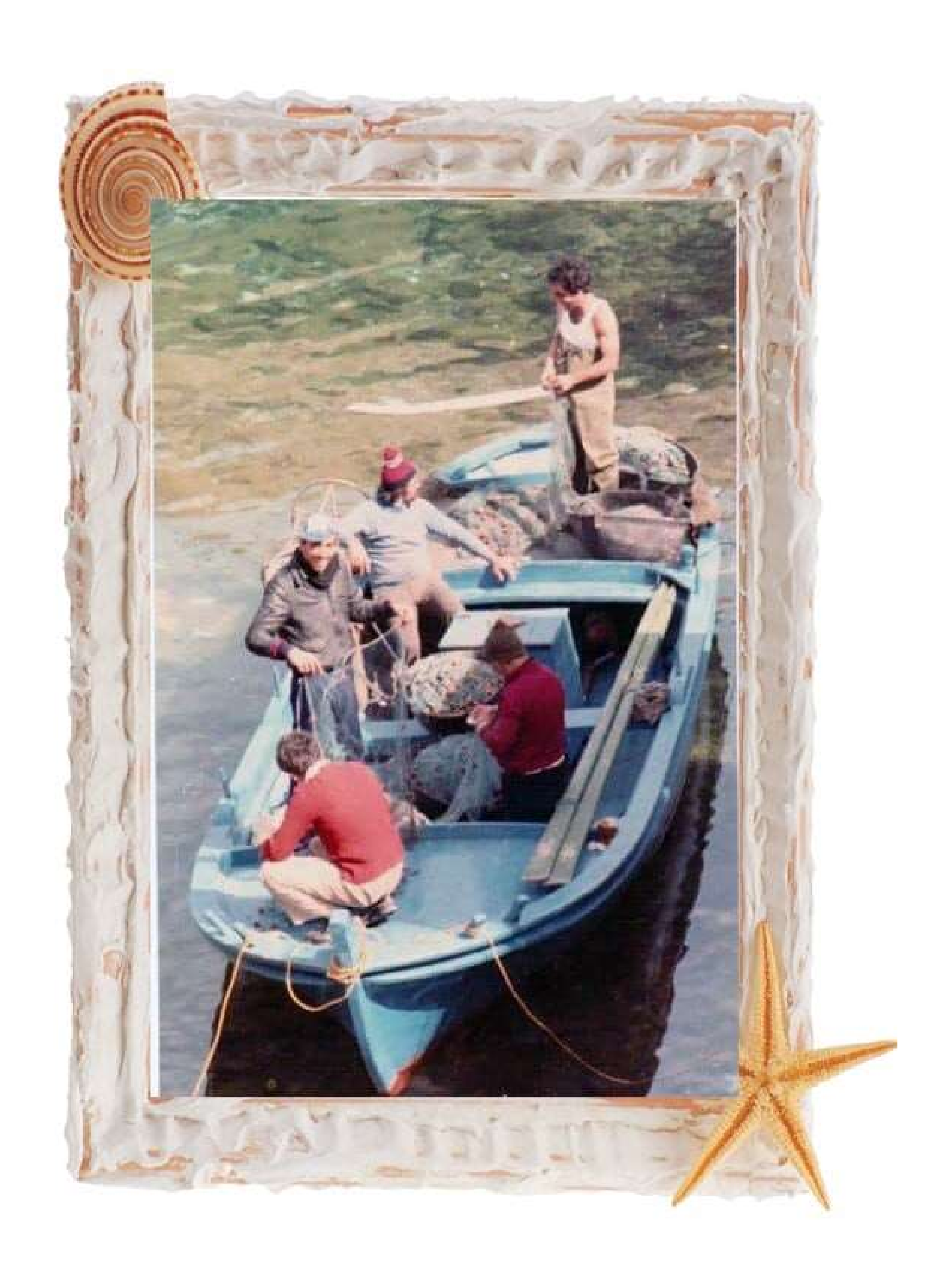
مينة عين المريسة تحكي قصص ومغامرات صياديها

زياد سامي عيتاني

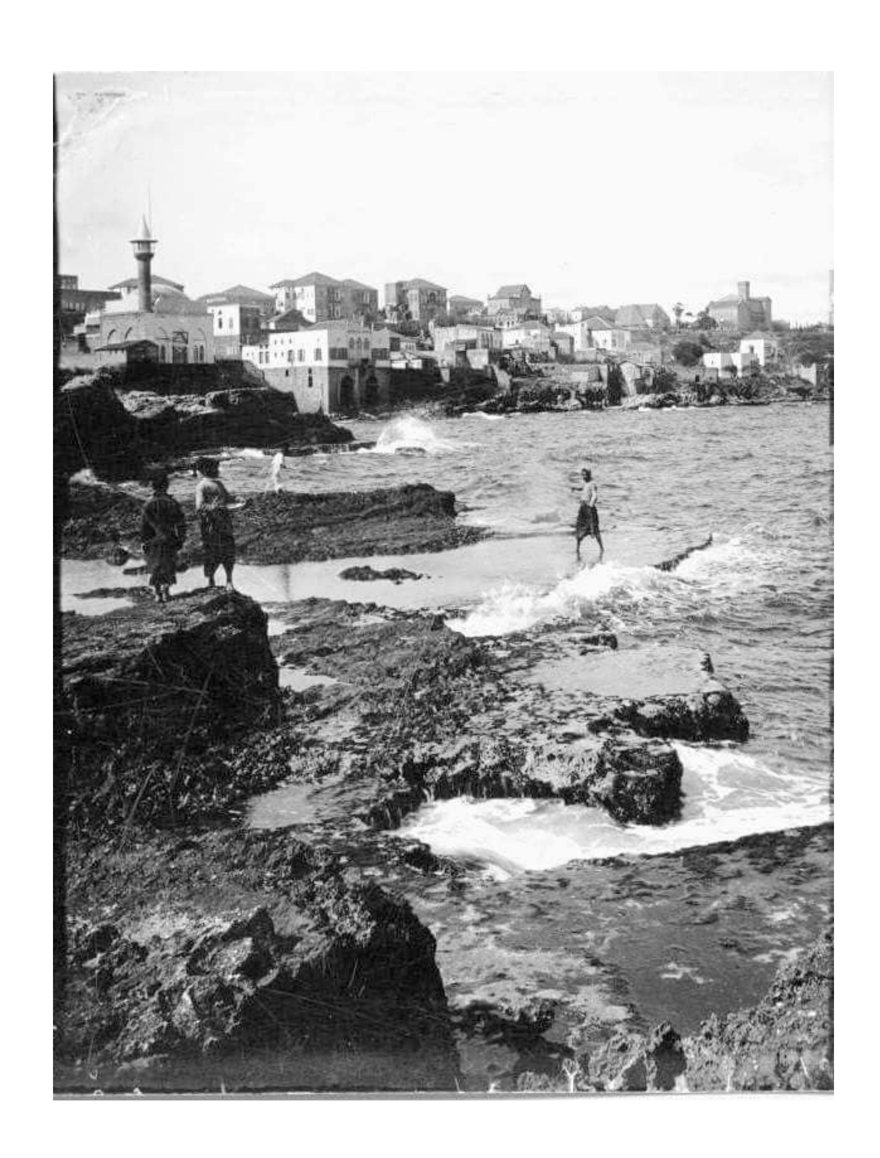


مقدمة

بين (أولاد) "عين المريسة" وبحرها علاقة سحرية، عمرها من عمر صخورها الدهرية، ومينة صياديها، وشمسها الذهبية، وبيوتها القرميدية، وأشجارها الأبدية. علاقة لا يجيدها إلا من تنشق لطائف نسائمها، ورطوبة هوائها، ولامست جسده ملوحة رذاذ أمواجها، وإغتسل بماء عينها العذباء، وتزحلق بأعشابها البحرية، وتدحرج على صخورها وأبحر بقواربها الخشبية، ولعب طفلاً في مغارتها.

على كلّ صخرة من صخورها حفرت حكايات، وقصص، وذكريات ومغامرات بحّارتها وصياديها المكافحين، لم تمحها كلّ العواصف العاتية، ولا الأمواج الغاضبة، ولا تعاقب الزمن والسنين التعبة.

بحرها المتمايل والمتماوج أحياناً، والهائج الثائر أحياناً، كم يختزن من آثار الأسرار والأخبار وهموم ومخاطر الباحثين عن قوت يومهم في هذا الأزرق المتوسطي الكبير.



فهو لهم الصديق الونيس والأنيس، الذي يبادلهم المشاعر والأحاسيس، ويتفاعل مع جوارحهم بما يشبه حركة المد والجزر. وهو بالنسبة لهم ملاذهم الذي يشعرهم بالأمان والسلام، رغم تياراته الجارفة وغدره عندما يعبر عن غضبٍ يحتفظ بسره لنفسه. هو بحرهم بأمواجه العاتية وسيمفونية أصواته وألوانه المتدرِّجة في زرقتها خلال إعتكاره وهدوئه وصفائه، بصيفه وخريفه وشتائه.

سر هذه العلاقة بين صيادي عين المريسة وبحرها كنز مدفون في قعره، لا قدرة لأحد الاقتراب منه...

المنطقة حملت إسم مرساها

عين المريسة"، التي سميت كذلك نسبة إلى ينبوع ماء عذب كان يجري عند الشاطئ ويصب في البحر، حيثُ ترسو مراكب الصيادين المتأهبة دوماً للإبحار والغنيمة من خيرات البحر المتوسط.



على الجهة الغربية لمدينة بيروت بمحاذاة شاطىء البحر، كانت قرية صغيرة من قرى ضواحي بيروت، قبل أن تصبح واحدة من أرقى مناطقها. وهذه القرية كانت تعرف بـ "دار المرسي". وإسمها مشتق من الميناء المتواضع الذي كانت ترسو فيه الزوارق والمراكب الصغيرة المخصصة لصيد الأسماك، ثم صار يطلق عليها إسم "عين المرسي" لوجود عين ماء عذب كان يستقي منها أبناء القرية، وكانت تجري عند الشاطئ وتصب في البحر، حيثُ ترسو مراكب الصيادين المتأهبة دوماً للإبحار والغنيمة من خيرات البحر المتوسط.

إذن، إسم "عين المريسة" كما يؤكد المؤرخ الدكتور عصام شبارو يرتبط بكلمتين "عين" و"مرسى". فخليج "عين المريس" الذي ردمته أشغال وصلة كورنيش البحر في الفترة بين 1973 و1978، كان لقرون خلت "المرسى" الطبيعي لقوارب البحارة وصيادي الأسماك، وكان من الطبيعي لوقوع العين والمرسى في موقع واحد، أن يطلق "عين المرسى" الذي تحرف مع مرور الزمن، فأصبح "عين المريسة" ودخلت "الاسطورة" في تسمية هذه المنطقة، بعدما اطلقت بلدية بيروت اسم "دار المريسة" على الشارع الذي يمتد من "العين" الى الجامع وهو الشارع الذي يمثل الواجهة البحرية للمنطقة، على أن كلمة "دار" كانت ولا تزال تطلق على كثير من البيوت القرميدية المحاطة بالبساتين الواسعة في هذه المنطقة قبل زوالها.



الشهيد علي نجم على قاربه سنة 1970

وقد إشتهر أبناء تلك القرية بشجاعتهم وبسالتهم في الدفاع والذود عن قريتهم من محاولات الإعتداء عليها من قبل القراصنة، الذين كانوا يستخدمون ميناءها للنهب والسلب، وكان آخرهم القرانصة اليونان في العام 1827. ومع تمدد بيروت خارج سورها وضم الضواحي إليها، صارت قرية "عين المرسي" تعرف بمحلة "عين المريسة"، إستسهالاً للفظ، وصارت تشهد إزدياداً في أعداد القاطنين فيها من العائلات.

قرية الصيادين

لم تكن "عين المريسة" قبل العام ١٨٤٠ سوى إحدى ضواحي بيروت التاريخية، كونها كانت تقع ظاهر بيروت، (أي خارج سورها)، أسوة بباقي المناطق التي كانت تحيط بالمدينة.

وكانت المنطقة عبارة عن أراض وبساتين وجلول زراعية، حيث اهتم الأهالي والقاطنون فيها بزراعة أراضيها بمختلف الخضار والفواكة الموسمية، وعمدوا إلى حفر الآبار وسحب مياهها وتجميعها في برك شُيِّدت جانبها لريّ مزروعاتهم. وعند الحصاد، كانوا يبيعون محصولهم في باطن بيروت، التي كانوا يسلكونها عبر الأزقة الضيقة والوعرة، إما سيراً على الأقدام، أو بواسطة البغال والحمير. لذلك، لم تقطن "عين المريسة" في تلك الفترة سوى العائلات التي عملت بالزراعة، فكانت قرية زراعية بإمتياز.

وفي وقت لاحق، وبحكم الموقع البحري، لمنطقة "عين المريسة" المقرون بالخليج الطبيعي المحاط بصخورها الممتدة داخل مياه البحر، بأشكال متعرّجة، وغير منتظمة، حيث يمثل الخليج أقدم المعالم التاريخية لهذه المنطقة البحرية الشاطئية، صارت "عين المريسة" مقصداً للصيادين لوجود ذلك الخليج الذي تحول مع مرور الزمن إلى مرسى للصيادين، فإستحقت المحلة أن يطلق عليها "قرية الصيادين."

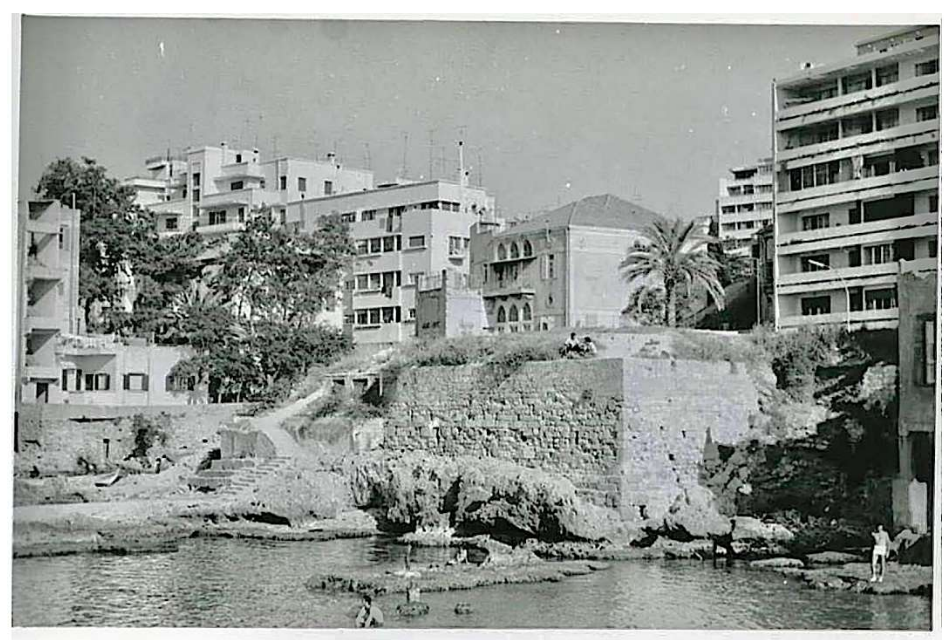


Charles Cushman collection. Indiana University archives.

وقد شكّل هذا الخليج حالة نادرة وملفتة، تتمثل بثلاثة موانئ طبيعية خُصّص ميناءان منها لقوارب الصيادين، هما: الميناء الرئيسي (كان قائماً مكان مسبح "الجمل" و"النورماندي"، والذي ردم سنة ١٩٧٣ مع بدء عملية تشييد وصلة الكورنيش) وميناء "الفاخورة" (عرف بهذا الإسم لوقوعه بجانب "الفاخورة"، (أي مصنع صغير لصناعة الفخار)، والتي أزيلت سنة ١٩٣٥ عند تشييد مبنى آل فاخوري. وتشكّل من هذين الميناءين ميناء "عين المريسة"، وهو أول الموانئ البيروتية، الذي تحوّل مركزاً للصيادين ومرسى لمراكبهم، مع الإشارة في هذا المجال إلى أن ميناء "الفاخورة"، هو أول ميناء مسجّل في بيروت.

محطة لا بد منها في مقهى "الديك!"

يسابق صيادو "عين المريسة" شروق الشمس ساعات الفجر الأولى، مع سماع الأذان من مئذنة مسجدها الجامع، الممزوج مع الألحان التي تعزفها كنشيد الصباح، الأمواج المترامية على صخورها الشاهدة على روايات وحكايات الأباء والأجداد والأجيال المتعاقبة مع بحرها..
يتجمعون على المحبة والتعاضد في مقهى "الديك" العتيق في أسفل منزل آل سبليني القرميدي مقابل "مينتهم" وكأنها صومعتهم التي تختزن تاريخ من سبقهم من الصيادين والبحارة وتختزله، لدرجة أن المقهى إرتبط بهم، حتى أنه كان يعرف "بمقهى الصيادين"، علماً أنه قبل أن يحمل إسم "الديك"، كان يُعرف عند تأسيسه سنة ١٩٢٠ بإسم مقهى "السباعي" نسبةً لصاحبه سعد الله السباعي (والد بطل الملاكمة والإطفائي وفيق السباعي)، لتنتقل ملكيته تباعاً لآل الظريف والغضبان، إلى أن تملكته زينب الديك سنة ١٩٥٢، فأداره شقيقها شفيق الديك والد الريس نجيب الديك (رئيس تعاونية الصيادين) والمناضل الوطني صالح الديك، فعُرف منذ ذلك الحين باسم مقهى "الديك"، ليصبح ملتقى الصيادين ومركز تجمعهم، وواحداً من أبرز معالم عين المريسة.



صخرة "التتفيشة" في المقدمة ومبنى مومنه وبجانبه مبنى آل سبليني القرميدي حيث مقهى الديك

وكان الصياديون يجلسون خارج المقهى على قارعة الرصيف على كراسي القش، يحتسون قهوة الصباح "سكر زيادة" قبل أن ينزلوا المالح، مصحوبة بنفس "أركيلة" تتناغم قرقعة مياهها مع أصواتهم وهم يتبادلون أطراف الأحاديث غير المتناسقة، مجموعة تتحدث بالسياسة، وأخرى تتناول أحداث مسلسل أو فيلم شاهدوه بالأسود والأبيض، فيما يصغي البعض بتركيز لسماع أخبار إذاعة صوت العرب أو إذاعة لندن.
رغم أن مقهى "الديك" إرتبط بالذاكرة الشعبية لدى أهالي "عين المريسة" إلا أنّه وللأسف تمّت إزالته سنة ١٩٩٣ بعد هدم مبنى آل السبليني القرميدي، ليشيّد مكانه بناية حديثة بنشأتها وهندستها...
يتبع: تسلّم وتسليم بين صيادي الليل والصباح!

تسلم وتسليم بين صيادي الليل والصباح

عند الغسق يرتسم مشهد رائع على مشارف "المينة"، حيث تتراكم القوارب ذات الأحجام والأشكال المختلفة : "السنبك" أي الزورق الخشبي مع مجدافين، "البلطة" المركب الصغير (الشختورة) وله شراع، "الفلوكة"وهي عبارة عن مركب مصنوع من الخشب والخام مع المجاديف، "المبطنة" وهي القارب الذي يوضع في وسطه محركاً يعمل على المازوت، لتحريكه بدلاً من المجاديف. أما في المياه "الضحلة" القوارب المربوطة بالحبال بحائط "المينة" تنتظر صياديها إستعداداً للخروج.



كل واحدة من هذه الزوارق مطلي بألوان مختلفة ومكتوب عليها بخط يدوي مموج كالبحر أسماءها وأرقامها، منها ما هو منطلق في رحلة الإبحار الصباحية، ومنها ما هو عائد من رحلة الصيد الليلية، كأنها مشهدية عفوية إنسيابية كالأمواج المتلاحقة لمراسم الإستلام والتسليم بين حراس "المينة" وبحر عين المريسة، تشبه تماماً حركة المد والجزر.

الصيادون العائدون يقتربون من المدخل البحري "للمينة"، ينزلون منها ببدلاتهم المصنوعة خصيصاً من النايلون لتحميهم من رطوبة الليل السامة، فرحين، مظفرين، مقتنعين، راضين بما قسم الله لهم من رزق، ويتعاونون بزنودهم السمراء وعافيتهم على جرّها صعوداً إلى اليابسة، تمهيداً لإنزال "القفف" ثم البديء بعملية فكّ الشباك وتخليص ما علق بها من أسماك وإزالة الأصداف والأعشاب بحرية، وتعريبها، وفرز كلّ نوع من الأسماك في "فرش" خشبي، تمهيداً لبيعها لصاحب مسمكة "عين المريسة" الوكيلة الحصرية لشراء رزق صياديها.

مسمكة عين المريسة

إذا اقترنت "عين المريسة" بميناء الصيادين، فإن الميناء إرتبط إرتباطاً وثيقاً بمسمكة "عين المريسة" أو مسمكة "أبو إبراهيم سلطاني"، كونه كان يشتري من الصيادين كلّ ما يصطادونه من أسماك، ليبيعه بدوره للزبائن، الذين كانوا يقصدون مسمكته من مختلف المناطق البيروتية، كما أن العديد من المطاعم كانت من زبائنه الدائمين، لثقتهم بأن أسماكه طازجة غير مثلجة أو مستوردة. ولكن، قلة من كان يدرك أنه قبل إنشاء المسمكة، كان أهالي المحلة يشترون السمك مباشرة من الصيادين، إلا أنه ومع تطوّر وإزدهار صيد السمك في المنطقة، أسس القبضاي مصطفى علوان مسمكة صغيرة في نفس المكان الذي أنشئ فيه لاحقاً ملهى "الفونتانا."



أما مسمكة "عين المريسة" فقد أنشئت بداية فوق مسبح "الجمل"، حيث كان يُقام فيها مزاد علني لبيع السمك بإشراف محمد سلطاني وعارف شقير، لينتقلا بعدها إلى المسمكة الأشهر التي هي عبارة عن مصطبة صغيرة بمحاذاة الرصيف عند مدخل ميناء "الفاخورة"، التي سُمّيت مسمكة "عين المريسة"، لينفرد في وقت لاحق محمد سلطاني "أبو إبراهيم بملكيتها، حتى صارت تُعرف باسمه. وكان أبو إبراهيم يشتري السمك من الصيادين ومن سوق السمك، ويفرد على مصطبته الأسماك بشكل يجذب الناظر، ويضع تحتها الثلج المكسر للحفاظ على جودتها، وكان بين الحين والآخر يرش السمك بماء البحر بواسطة "طاسة" موضوعة في "سطل" على يمين المسمكة، أما على شمال المسمكة، فكان يضع الميزان الحديدي ذات الكفتين النحاسيتين وإلى جانبه "العيارات" من مختلف الأوزان، وجنبها أكياس نايلون شفاف.

وكان معروفاً عن المرحوم أبو إبراهيم سلطاني رغم طيبة قلبه، طبعه الحاد وعصبيته، حيث أن "روحه في راس مناخيره"، سيما وأنه في شبابه كان من قبضايات المحلة، والمسدس لا يفارق وسطه، لذلك لم يكن يتحمل الزبائن ولا "الصيادة" الذين يحاولون "مفاصلته" على سعر شراء أوبيع السمك، فيعلو صراخه وتظهر إنفعالاته العصبية. كذلك، كان يُعرف عنه أنه وفور الإنتهاء من بيع "الرزق"، كان يحمل "غلته" ويتوجّه إلى المصرف لإستبدالها بأوراق نقدية جديدة، حيث كان يصرّ على التعامل بها، لأسباب احتفظ بها لنفسه.

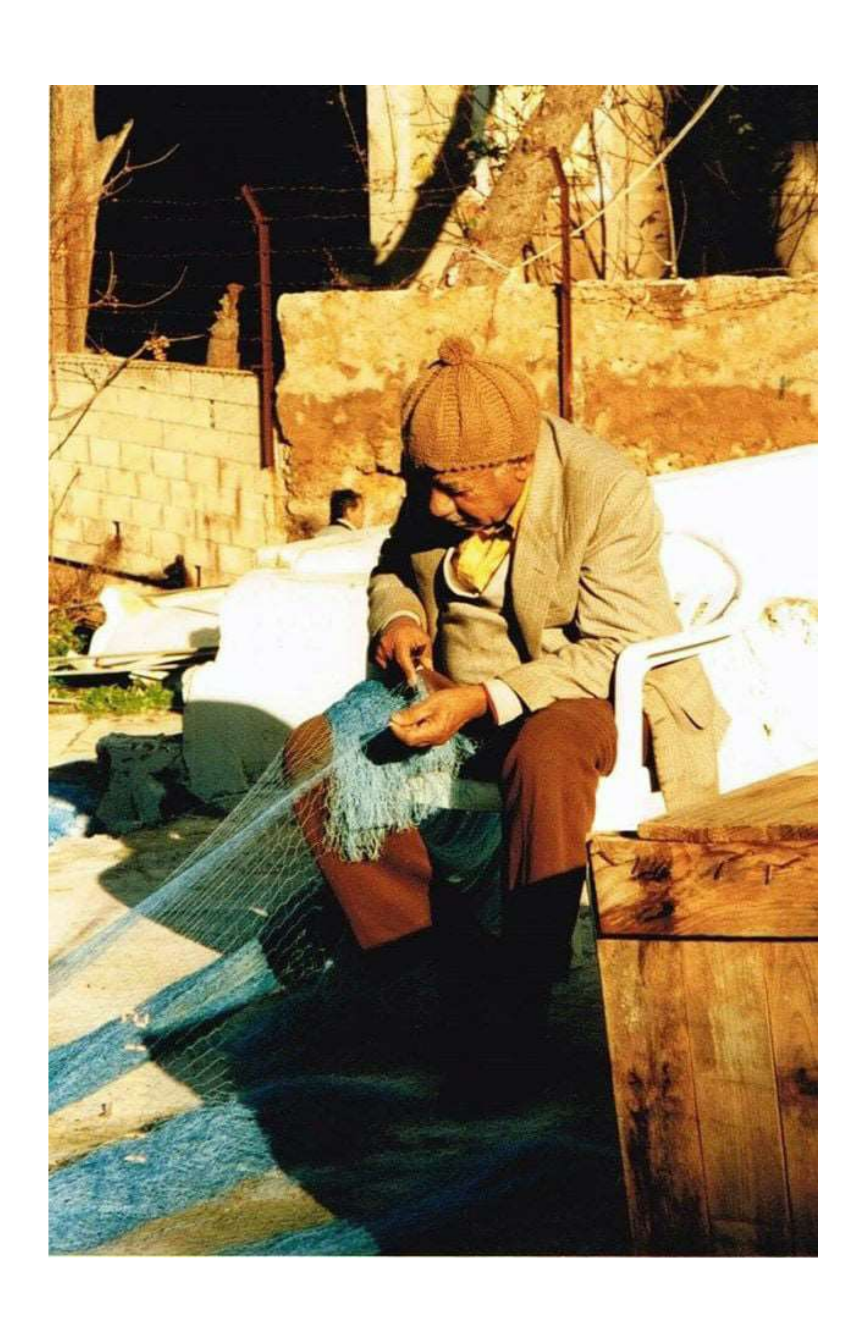
بقي الريس أبو إبراهيم سلطاني متسيّداً مصطبته حتى العام ١٩٧٤ إلى أن تقدم بالسن ونال منه المرض، فآلت إلى الريس نجيب الديك الذي عمد إلى توسعتها وتحديثها وإدخال البرادات إليها.



أبجدية خاصة بالصيادين!

مهنة صيد السمك، تلك الحرفة الشعبية المتوارثة عبر أجيال صيادي "عين المريسة" المتعاقبة وعشقها للبحر الذي لم ينقطع، حتى بات جزءاً أساسياً من حياتها اليومية، جعل لصيادي "العين" أبجديتهم الخاصة في تعريف لغة البحر ومصطلحاته وتوصيفاته، التي تشكل قاموساً لغوياً وألسنياً تفوح منه رائحة البحر وملوحته ورطوبته، و تزهو بحكاياته التي لا تنتهي، وتعبر عن ثقافتهم البحرية، التي لا يجيدها غيرهم.

ومن قاموسهم البحري، عبارات ومفردات، ما يزالون يستخدمونها ويتحاورون فيما بينهم بها، عندما يدور الحديث عن البحر والصيد، ولا أحد سواهم يجيدها أو يفهمها.



فإذا كان "البحر نازل"، يكون المد أو التيار متجه للأسفل، عكس مقدمة المركب، وهو الافضل في عملية الصيد. وإذا كان "البحر طالع"، يكون المد أو التيار متجه إلى أعلى أو إلى اليمين أو إلى اليسار. ولما يكون "عامل شمالي"، فهذا يعني أن الريح شمالية وشديدة، ويسمون الهوا الشمالي (سماوي) لأنه مؤذٍ كالسم. ولما يعود البحر إلى هدوئه بعدما كان هائجاً، يقولون "البحر عَدَل". وعندما تكون الأمواج مرتفعة وغير منتظمة، فيكون "البحر لبش"، وبالمقابل إذا كان البحر هادئ جداً، يكون البحر "حوال" أو "زيت"، أي كسطح الزيت. وعندما يكون مليئاً بالأمواج الصغيرة البيضاء، فيطلق عليه "البحر منورس"، كأن مياهه عليها طائر النورس. وعند إنخفاض مياه البحر، فتعريفهم "المي ضحلة."

أما المصطلح الأكثر إستخداماً فهو "البحر نو"، عندما يكون موجه عالي، خصوصاً وأن لصيادي "عين المريسة" مع "نوايات" البحر حكايات ومغامرات ومخاطر.

و من أبجديتهم البحرية أيضاً:
"الفرشة"، أي المكان معروف لتجمع للسمك، و"الحوشه"، وهو المكان الوعر في عرض البحر.
و"الطرحة"، أي المكان أو المنطقة التي يتم فيها الصيد. و"التمنيع"، فترة الظهيرة و توسط الشمس في السماء حيث أن السمك لا يأكل الطعم في هذا الوقت. وكذلك "التزهيد"، وهو مصطلح يطلقه ريس المركب في العلامات التي يتخذها في معرفة الأماكن التي يرمي فيها شباكه أو أقفاصه. و"رجاع (عُدّ)على ميتك"، وهو مصطلح ينطق به فى حالة و الرغبة فى اللف مرة اخرى على نفس المكان.



Charles Cushman collection. Indiana University archives.

الإبحار نحو المجهول بحثاً عن الرزق!

مع بزوغ الشمس المتسللة بلطف، يمتطي صيادون الصباح "فلايكهم" و"سنابكهم" مبحرين بحثاً عن رزقهم، وهم يرددون: "رزق البحر..بحر"، والرزاق الله... وهم مفعمون بالنشاط والحيوية والسرور، في مشوارهم اليومي إلى عالمهم المجهول المتناقض والممزوج بالحب والغدر والغضب والمخاطر والهدوء والرزق والكرم والكسب والشح والشؤم والسخرة.

يبحرون إلى عرض البحر في رحلة كفاحهم اليومية، حيث الزمن قد فعل أعاجيبه في تجاعيد بشرة وجوههم السمراء التي تحكي أسرار مهنة لا تزال تسرد حكايات من تاريخ منطقتهم. فهم توارثوا حرفة الصيد وركوب مخاطر البحر وهم صغاراً بالفطرة والإعتياد لمواصلة تراث الأجيال المتعاقبة بإنسيابية تشبه تدفق موجه، فهو يجلب لهم الخير والرزق، كما أنه مورد عيشهم اليومي المحفوف بالمصاعب والمشقات.

فترى كل مركب يتجه نحو المساحة المخصصة له، وكأنها حصته من البحر دون صك ملكية يوزعونها بالإتفاق والتراضي بينهم كأنه ميثاق شرف بين رياس المراكب.على كل مركب صيد مبحر في عرض البحر ريّسه، يحمل على كتفيه مديداً من السنين قضاها مبحراً مكافحاً باحثاً عن رزقه في أغوار البحر وأعماقه وخباياه. يعاونه شباب تملؤهم الحيوية ويسكنهم الإندفاع بشغف ليكتسبوا خبرة الشيوخ ويكتشفوا أسرار البحر الغامض المجهول ومهارة الصيد فيه.



فالرعيل القديم من رياس "المينة" الذين ذاع صيتهم ما زالت أسماءهم عالقة في ذاكرة كبار السن من أبناء "عين المريسة"، لا سيما منهم الذين كان مشهود لهم بشجاعتهم وجرأتهم في قهر البحر وقت الظروف المناخية الصعبة، وكيفة التعامل معه وترويضه في هكذا ظروف، فكانت مغامراتهم أشبه ببطولة تعتمد على

المعرفة بالفطرة، لا سيما عندما يتوجهون في موسم بحري معين نحو منطقة بحرية، يعتقد أن فيها "جورة كلاب البحر" لآصطياد الكلاب، رغم ما تنطوي عليه من مخاطر ومجازفة.

ومن رياس "المينة" المحفورة أسمائهم في الذاكرة الشعبية: حسن وسعد الله السباعي، رشيد الظريف، أحمد حمدي وولديه محي الدين وسعد الدين، إبراهيم الديك وأبنائه: بهيج ومنير وعزيز، حسن الخانجي وأولاده، ديب سعود وإبنه عبد الوهاب، حسن نجم وأولاده الشهيد علي والمرحوم إبراهيم (بطل الغطس، ومؤسس المتحف البحري التراثي بمجهود فردي، الذي تحول إلى جزء من منزله، والذي جمع جميع مقتنياته من قعر البحر، إذ تضم محتوياته حوالي ستين ألف قطعة أثرية) وعادل، أحمد مرزى، عبد وعفيف الغضبان، عبد فاخوري، نجيب وصالح الديك، خضر المصري وأولاده، أنور سلام وأولاده، وغيرهم من الكثير من الرياس والصيادين.



يذكر أخيراً في سياق الحديث عن الرياس، أنهم كانوا يزاولون صيد الأسماك بموجب رخصة تصدر عن السجل البحري في وزارة الأشغال والنقل، وتسجل مراكبهم في رئاسة ميناء بيروت، وتمنح تذكرة بحرية تحمل اسم ورقم الزورق.

تحدي مخاطر الطقس والليل

"صيادة" "عين المريسة، الذين إرتبطت حياتهم ببحرها، لم يهابوا مخاطره ومصاعبه يوماً في رحلة بحثهم النهارية والليلية عن قوتهم ومورد رزقهم، بل كانوا دوماً يروضون العواصف والأخطار، ويمخرون عباب البحر بحثاً عن الرزق، حيث إعتادوا مكابدة المصاعب من أجل الحفاظ على تراثهم البحري.



فكل طرق الصيد لا تخلو من الخطر، وكثيرة هي الأيام التي يسرح فيها "الصيادة" في ظروف مناخية صعبة للغاية، يتحدون فيها العواصف الشديدة، وعلو الموج، وسرعة الريح، خصوصاً في أوقات "النو"، إضافة إلى دوران التيارات البحرية. فالبحر متقلب ومزاجي، لا يُعرف متى يهدأ ومتى يهوج ويثور، لكن "صيادة العين" يجيدون التعامل معه ومع غموضه وأسراره، لأنه حياتهم وعالمهم.

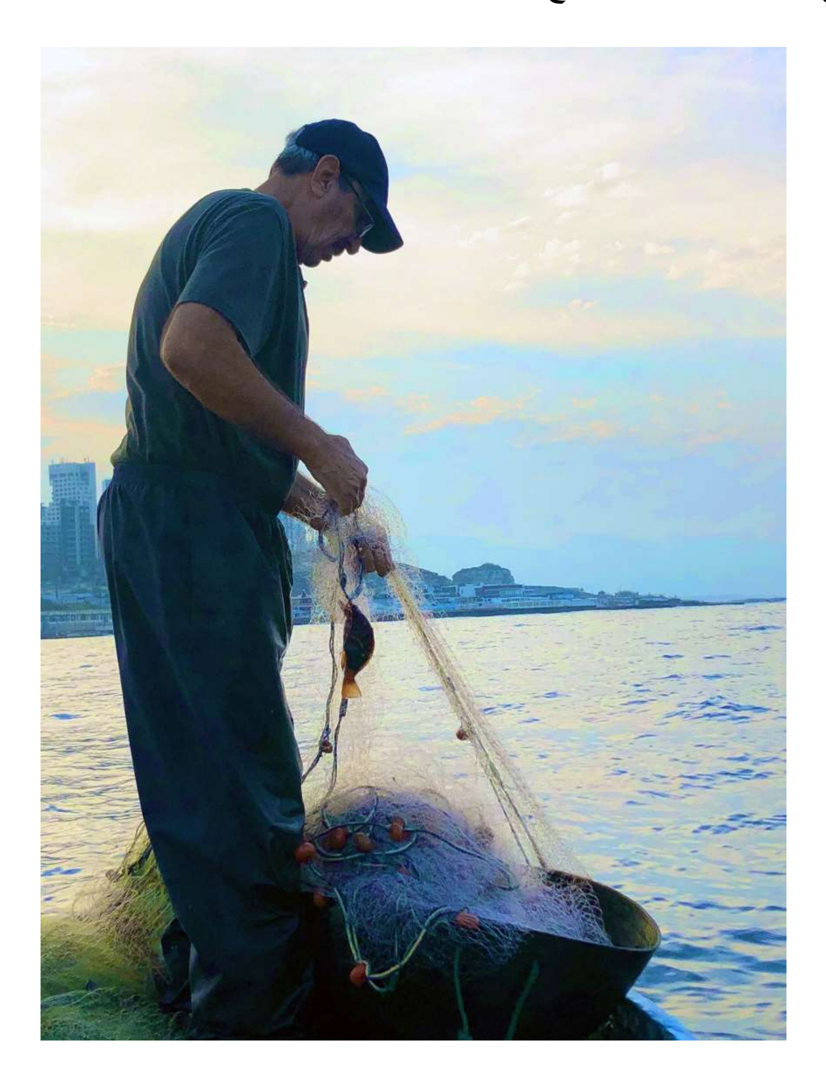
ولا تقتصر مخاطر ومصاعب مهنة صيد الأسماك على العوامل المناخية وتقلباتها، بل تشمل أيضاً إضطرار الصيادين ومن ضمن رحلة كفاحهم اليومية أن يسرحوا ليلاً بقواربهم في عرض البحر، متحدين سواد الليل ووحشته، في وقت كل الناس نيام بهدوء وسكينة ودفئ، إلا هم يقتحمون الظلام مستدلين طريقهم بضوء القمر الصامت المراقب، متحدين شدة الرطوبة صيفاً وسموم البرد القارص شتاءاً.

فصيد السمك في الليل في نظر ثقافة الصيادة أفضل بكثير من صيده في النهار لأن البحر يكون مظلم في الليل وبذلك يشعر السمك بالراحة، كذلك يكون الصياد ليس له ظل فيخرج السمك بكثرة، فضلاً عن أن المياه تكون باردة في الليل فيكثر السمك على سطح الماء، ويكون الصيد في الليل مضاعف عما هو عليه في النهار.

طرق وأدوات الصيد

خلال رحلة صيادي "عين المريسة" اليومية في "الواسع" تمتزج خيوط الشمس الذهبية مع خيوط شباك الصيد الزرقاء، التي ورغم الطرق البدائية المعتمدة في رميها وسحبها، فإنها تحفظ جزءاً كبيراً من تراث تلك المهنة العتيقة، وتروي عبر خيوطها فصولاً لا تمحى من ذاكرة البحر التي لا تنضب.

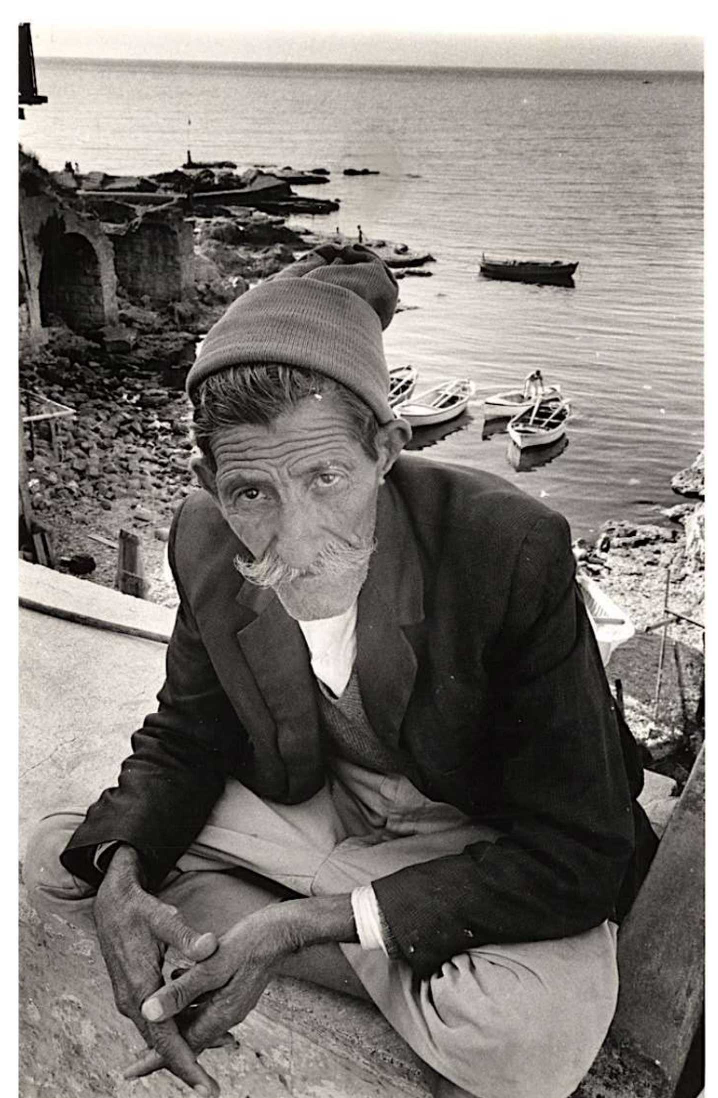
شباك صيد الأسماك بالنسبة للصيادين هي الأساس لإيقاع الأسماك في فخها. وهي عبارة عن مجموعة من الألياف المنسوجة على شكل شبكة، وكانت تصنع هذه الألياف من الأعشاب والكتان ثم القطن قديماً، يضاف إليها "الفلين"، ومع التطور أصبحت تصنع من مادة "النايلون."



فعند غروب شمس كل يوم، إيذاناً بإقتراب حلول ظلام الليل، يرمي الصيادون الشباك في عرض البحر ويمدونها في المنطقة البحرية المخصصة لهم، ويبقونها حتى ساعات الفجر الأولى، حيث أن تلك الفترة حالكة السواد، مما يجعل الرؤية عند الأسماك منعدمة، مما يسهل عملية وقوعها في المصيدة، طيلة ساعات الليل.

وفي الصباح الباكر، يبحر "الصيادة" بمراكبهم بإتجاه المكان الذي رموا فيه شباكهم، و"المُعَلَّمة" بعوامة من الفلين، حيث يبدأون بزنودهم القوية عملية سحب الشباك الشاقة لثقل وزنها من البحر، بما علق بها من أسماك، و"تستف" في "القفف" وسلال القش بطريقة فنية إحترافية متناسقة وتوضب بشكل متراكم بإنسيابية لا يجيدها إلا الصيادة أنفسهم.

فبحسب خبرة "الصيادة" تتفاوت ساعات النهار والليل في صلاحيتها للصيد، إذ أن من غرائز السمك الإقتراب من الشواطئ بعد غروب الشمس باحثاً لنفسه عن طعام يأكله أو عن مكان آمن يرقد فيه .فإذا ما بدأت الشمس في البزوغ تراه يهرع من جديد إلى داخل البحر حتى لا يكشف أمره ولا يبقى على الشواطئ إلا صغير السمك الذي يستطيع أن يظهر بسرعة بين ثنايا الصخور. لذلك، يجوز القول بصفة عامة أن الصيد في الليل خير من الصيد بالنهار. وهذا ما يؤمن به الصيادون وما يعمل به العديد منهم، حيث يباشرون الصيد بعد أن يرخي الليل سواده.



شيخ صيادي عين المريسة ابو خليل الديك سنة ١٩٦٥ للمصور الأميركي وليم كارتر

من يشاهد من على الشاطئ إنتشار المراكب في البحر، يشعر نفسه أنه يشاهد لوحة سريالية لناس يسهرون على شرفات بيوت عين المريسة القرميدية، في ليلة قمرية مضيئة، وكأن المراكب البحرية هي إمتداد للنجوم المتلألئة في السماء. في حين أن الواقع ليس كذلك على الإطلاق، فالساهرون من الصيادة على سطح البحر على ضوء قناديل "اللوكس" ليسوا في رحلة إستجمام، بل في رحلة كفاح لا يدرون إذا يعودون صباحاً إلى "المينة" مظفرين، أم أن البحر سيغدر بهم.

ولأن صيد السمك يجذب لصيادة "العين" الخير والرزق، فإنهم لم يكتفوا فقط الصيد بواسطة الشباك، بل لجأوا إلى طرق وأدوات الصيد التقليدية المختلفة التي تحتاج إلى مهارات خاصة، والتي مازالت مستخدمة إلى اليوم.

ومن تلك الأدوات نذكر:

"-الأقفاص"

تصنع هذه الأقفاص من الأسلاك المعدنية التي تلتف بشكل دائري، مع الإبقاء على فتحة من الأعلى بشكل ضيق وممتد إلى الداخل. بعد إختيار المنطقة البحرية يضع الصياد مزيجاً من الأعشاب البحرية المختلفة داخل القفص وعلى أطرافه كطعم لجذب الأسماك، ثم يغطس في الماء حتى يصل الى القعر ويختار مكاناً لتثبيت القفص، حيث يترك القفص في الماء مدة لا تقل عن الساعة حتى تدخل إليه الأسماك التي ما أن تشدها رائحة العشب البحري حتى تسبح نزولاً وتدخل من خلال الفتحة إلى القفص لكي "ترعى" العشب، إلا أن هذه الأسماك تبقى عالقة داخل القفص ولا تتمكن من الخروج منه مجدداً. بعدها يرجع الصياد لتفقد أقفاصه فيرفع الى مركبه تلك التي دخلت إليها الأسماك فيفرغها ويعيدها ويبدل أمكنة الاقفاص الفارغة، وهكذا دواليك حتى ينتهي من صيده.



-الجرجارة:
هي عبارة عن خيط تربط به عدة "سنانير" فيها ريش أبيض، و توضع "الجرجارة" في الماء في الوقت الذي يكون فيه المركب يسير في عرض البحر.
-البولس:
هي عبارة عن خيط مربوط به عدد من "السنانير" يوضع بهم طعم من السردين او القريدس لجلب الأسماك للتمكن من إيقاعها بالفخ، ومن ثم إصطيادهم بعدما تكون قد علقت ب"السنارة."

إنها علاقة (أولاد) "عين المريسة" مع البحر، التي هي علاقة عشق أبدي، علاقة ضاربة في عمق الزمان بتضاريسه المتعرجة، علاقة محفورة تفاصيلها على كل صخرة من صخوره، ومدفونة أسرارها في قعر البحر، التي لم تمحها لا الأمواج العاتية ولا التيارات الصرصرة.

فهم مجاورون للبحر، لا بل متصلين به، كأنهم ولدوا لأجله، أحبوه وتعلقوا وإرتبطوا به، وتوارثوا حرفة الصيد وركوب مخاطره وهم صغاراً جيلاً بعد جيل بالفطرة والإعتياد، ليواصلوا ويحافظوا على تراث الأجداد والأباء بكل أمانة، حتى صارت هذه العلاقة تجسد تاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم وحكاياتهم ومروياتهم الأصيلة المتجذرة، التي تتناقلها الأمواج على نطاق واسع وأمد طويل بإنسيابية تشبه حركة المد والجزر، دون أن تتأثر بكل تغييراته.



*****

الأستاذ زياد سامي عيتاني إعلامي وكاتب وباحث في التراث الشعبي.